وضعية الأديب

بقلم غالب هلسا

اصبح من الامور الشائعة والمنتظرة ان يلمع الاديب في مقتبل حياته بعمل جيد قد بذل جهدا كبيرا في خلقه ، ثم يتحول بعد ذلك الى كاتب ظريف ، ثرثار ، ذى علاقات غرامية معروفة ومجد وثراء .

ومثل هذه الظاهرة عامة في حياتنا الى حد انها تكاد تكون خط مسير جميع الفنانين لايشذ عنها الا القليلون ممن لم يتعلموا سر الصنعة بعد. ويتخذ كثيرون سمة الاستاذية فيقولون لنا ان هؤلاء الكتاب قد لعبوا دورا تقدميا ، وأما ماوصلوا اليه الان فعلينا ان نسكت عنه .والحق ان هؤلاء مخطئون في انتقاص هؤلاء الكتاب الى ابعد مما يذهب اقسى نقادهم ، اذ هم بتقديمهم مثل هذه الاعتذارات عنهم انما يعتبرونهم في حكم الاموات ، ولذا علينا ـ تعففا ـ ان نكتفي بذكر محاسن موتانا .

ومثل هذه المشكلة قد اثارت الانتباه منذ زمن بعيد ، فقد عللها طه حسين ـ مثلا ـ بانها تعود الى ان الشبان في هذه الايام ـ ولا ادري لماذا قصر المسالة على الشبان ـ لايبذلون قدرا كافيا من الجهد ، وهذا الجهد في رأي الدكتور هو ان يتقن من اراد ان يتخذ مهنة الكتابة السريانية والعبرانية واليونانية واللاتينية وكذلك عددا من اللغات الحية لايقل عن الاربع ، بجانب انكبابه على عشرات الالاف من الكتب الحديثة والقديمة ، والدكتور بعد هذا كله زعيم بان يكتب الكاتب فيجود الكتابة .

وقال العقاد ـ ولم يكن يقصد الهزل ـ ان ذلك كله يعود الى ان هؤلاء الجهلة لم يقرأوا كتبي بعد، او لم يفهموا ماجاء فيها ـ ان قرأوها. ورأى اخرون ان هذه المشكلة سببها هو الاحساس بعدم المسؤولية ،والحوا بحسم على الكتاب بان يتخلوا عن لا مبالاتهم . وانكر اخرون وجود مثل هذه الظاهرة اصلا .

ربما كان بعض هذه الاراء صحيحا ولكنه غير واف . فعندما نقصر المشكلة على انها مجرد سوء في اخلاق الكاتب وفي نقص المجهود الذي يبذله وبسبب عدم احساسه بالمسؤولية ، فاننا لانختلف كثيرا عن وعاظ السجون ، اذ ان هنالك عاملين هامين فيما يختص بالانتاج الادبي :

اولا : الجمهور المتلقي

والثاني : علاقة الكاتب بهذا الجمهور .

ان الطابع المميز لهذا الجمهور انه جمهور مراهق ، وهذا تقييم لواقع علينا مواجهته بصراحة . ان ظروفا اقتصادية واجتماعية وسياسية عميقة الجذور قد ادت الى ذلك . فهذا الجمهور ـ واعني به الاكثرية من سكان المدن والتي تكون الاغلبية القارئة ـ قد خرج ـ او هو في طريقه الى ذلك ـ من العلاقات التي تمنحه الوفاق مع العالم والتي كانت تتمثل في المجتمعات الصغيرة المفتوحة البسيطة التي تسيطر عليها تقاليد قرون طويلة ، الى مجتمع قد منحه قدرا من حرية السلوك والتحرر من التقاليد ، وفي الوقت نفسه سد في وجهه جميع سبل الحركة . ان الانسان الاوروبي عندما خرج من مجتمع القرون الوسطى انطلق كالاعصار يستعمر البلدان المتخلفة ، ويستكشف القارات الجديدة، ويكدس الاموال ويشن الحروب ويحقق انتصارات ساحقة في مجال العلوم وفي مجال التطبيق .

اما جمهورنا فهو عندما خرج من اسر العلاقات الابوية وجد نفسه كالطفل العاجز الذي لاحول له ولا قوة ، فالتحرك في المجال الاقتصادي محدود جدا بسبب عهود طويلة من السيطرة الاستعمارية ، والتعبير عن الذات في المجال السياسي كان ـ في اغلب الاحيان ـ مجرد تبعية لاصحاب المصالح الكبيرة او لعدد من الوصوليين المغامرين . ومن الامور ذات الدلالة انه في الوقت الذي كانت تحدث فيه انطلاقات ثورية عنيفة متميزة بانفعال شديد لم تخلق اية عقيدة ـ كالعقيدة البروتستانتية في اوروبا تؤكد خصائص الحركة الدائبة في الاشخاص . كما ان الفرد في هذا الجمهور لم يمنح الاستقرار والاطمئنان الكافيين ولا الثقافة لتتحول احلام اليقظة والرغبة في الفرار عنده الى اعمال فنية ناضجة واعية ، ولذا اصبحت الدعوات المتميزة بالنكوص تلاقي اقبالا شديدا وحماسا منقطع النظير . ان مجتمعا يرفع مستوى الدخل القومي ويؤمن توزيعا عادلا في الانتاج وفرصا متكافئة للعمل ويفتح مجالات واسعة امام الفرد ليعبر عن طاقاته هو الذي ينقل هذا الجمهور من مرحلة المراهقة الى مرحلة النضوج . ولتحقيق مثل هذا المجتمع تحتل وسائل النشر والتوجيه اهمية قصوى .

في المجتمعات الصغيرة المحدودة كان الطفل ينتقل الى مرحلة الكبار بيسر وسهولة . فهو يعيش في غرفة واحدة معهم ويراقبهم في مجال العمل واللهو وفي خلال ممارستهم لمختلف اشكال النشاط الاجتماعي ، فلذا يستطيع بدون جهد ان يمتص قيم مجتمعه من خلال الامثلة الحية التي تتحرك وتتصرف امامه . اما في مجتمعاتنا الحديثة فللاطفال حجرات خاصة للنوم وعمل الابوين ونشاطهم الاجتماعي يتم بعيدا عن اعين الطفل وعن مراقبته . ولذا يمضي عهد طويل على الطفل وهو يتلقى قيم مجتمعة من خلال الكلمات التي يلقيها الابوان والمدرس ، من خلال الكتب التي يقراها والافلام التي يشاهدها الخ ... وكلما ازداد تعقيد الحياة ، تاخر دخول الطفل الى معتركها وقل مجال مشاهدة السلوك الاجتماعي ، واصبح متكيفا لان يتلقى وينفعل من خلال الكلمات او اي شكل اخر يستعمل لايصال القيم الاجتماعية الى ذهن المتلقي .

فماذا كان دور وسائل النشر والتثقيف عندنا ؟

لنرافق الجمهور المتلقي في رحلة يومه !

قبل مواعيد السينما في المساء تحتشد شوارع القاهرة الرئيسية بعشرات الالاف من النساء والرجال حتى يصبح المرور فيها عملية مرهقة . كانوا قد امضوا يومهم في دوامة من الاجهاد والمعاناة والضياع، ثم تسلقوا الاتوبيس المزدحم تشاجروا مع الكمساري والركاب واندفعوا في الشوارع يتخطون العربات المسرعة ويعاكسون الفتيات وربما تشاجروا بسبب ذلك . ثم وجدوا مكانا في الصفوف الطويلة المنتظرة امام نوافذ التذاكر.وفي ظلام قاعة السينما ينسى المتفرج من حوله ويعيش هو والفلم فقط . على الشاشة يظهر عمر الشريف او عبد الحليم حافظ او شكري سرحان .. انسان يحمل هموما كهمومه : حياة بلا معنى ... بحث عن شيء ما .. قلق .. ويسير على كوبري قصر النيل ، او امام مقاه سحرية ، وينعطف الى حديقة الفردوس او الى حديقة الحيوانات وهناك يلتقي بفتاة رائعة الجمال ، تحمل كتبا مدرسية:

فاتن حمامة او لبنى عبد العزيز او شادية .. فتاة بريئة شديدة السذاجة خفيفة الروح ... يعاكسها الشاب فتستجيب ، وامام اقفاص حديقة الحيوانات او في جزيرة الشاي او اي مكان اخر ينشا الحب بين قلبين طاهرين .. يغني البطل او البطلة عدة اغان تعبر عن هذا الحب.. الجميع : البطل والبطلة واصدقاؤهما يعيشون في قبلات فخمة محاطة بالحدائق وباناس يحبونهم ويودون لهم كل خير .

ويتدخل العاذلون او اب اسطوري ابله او يحدث سوء تفاهم غير مقصود فيرفع البطل عقيرته بالنواح ، ويزداد شحوب وجه البطلة .. وبقدرة حلال العقد تتلاشى المشكلات وتذوب وتمتلىء الشاشة بقبلة حارة .

وهكذا تبسط المشكلة التي يعانيها المتفرج الى حد ان تصبح مجرد سوء تفاهم ، تصبح معاناته وضيقه ومشكلاته المادية وسماجة بنت الجيران هي مجرد عناد اب ابله من السهل اقناعه باي شيء .والخروج من الدوامة التي يعيش فيها يصبح من ايسر الامور : ان يلبس بنطلونا ضيقا ويسرح شعره بطريقة معينة ويقول للفتاة التي تسير امامه كلمات كالتي قالها شكري سرحان .

وفي الخارج يواجه المتفرج اخرين قد كيفتهم السينما ووسائل النشر الاخرى واستلبت منهم كل ذكاء في فهم الواقع ، ووقعوا في اسر الخدعة السينمائية : ابطال لهم همومهم نفسها ولكنهم يحلونها بمجرد الفاظ وحذلقة خارجية .

وفي الشارع بين اكوام الكتب يعثر على ضالته : (هذه المرأة لي) (القس القاتل) (مذكرات فاجرة) .. وفي المقهى يدفع اليه اعلان كتاب :

(الصراحة التامة في العلاقات التناسلية .. الكتاب المرشح لجائزة الدولة ... كيف تحب وكيف تكون محبوبا وكيف تجذب قلب المرأة اليك وتعرف ميولها واخلاقها وطباعها .. والحاسة التناسلية عند الرجل والمرأة ...ليلةالزفاف وشهر العسل وتهيج الشهوة عند الجنسين ... القبلة الاولى على سرير النوم وكيف تعرف سر المرأة من اول نظرة . كيف ترجع شبابك حتى لو كنت في الاربعين ... ما هي الصفات التي تحبها المرأة في الرجل وبالاختصار فهذا الكتاب يريك اعظم الطرق التناسلية والصحية به تمتلك المرأة روحا وجسدا وهو يهم المتزوجين والعزاب .)

واما الفتاة التي سدت في وجهها السبيل وحرمت من الزواج والمتع والاصدقاء فما عليها الا ان تشتري مجلة « اخر ساعة » او مجلة « الجيل » فهنالك الحلول السحرية لكل المشكلات (ب. ب. .. خصر ٣٠س م.. صدر ٦٠ س م.. ارداف ٩٠س م.. تقول ان سر رشاقتي انني كل صباح ارفع قدمي الى مستوى انفي عشر مرات كل يوم ، واضع عصا على قفاي واميل يمنة ويسرة عشرين مرة كل يوم كما هو مبين بالصورة ... هل تريدين يا سيدتي ان يكون لك فتنة صوفيا لورين ؟ المسي طرف قدمك الايسر بيدك اليمنى ، وقدمك اليمنى بيدك اليسرى ثلاثين مرة كل يوم ... صباح تقول : عندما ولدت صرخت امي : بنت!.. ووحشة كمان ! ولكن جمالي يعود لتناولي الفاكهة كل صباح وشرب كوب لبن قبل النوم .)

واية احلام تولد في ذهن المراهق عندما يقول كاتب معروف (انا لا استطيع النوم ... ذهبت الى الدكتور فقلت له انني لا استطيع النوم ... ربما كان سبب ذلك يا دكتور انني اكلت سمكا في هونج كونج ، وشربت شايا في الهند ، واعطيت خادمة المطعم في امريكا عشرة دولارات بقشيش واكلت جبنا في الكونغو . واعطاني الدكتور اقراصا منومة ... فنمت ولكن امي صحتني من النوم ... قلت لها لا تصحيني من النوم ... ولكن وحياتكم ما فيش فايدة ...)

وقصص مسلسلة تنشر في مجلات اسبوعية : حسنين ـ مثلا ـ ابن فلاح فقير معدم ويحب سوسو بنت الاقطاعي الكبير . حسنين يصبح بطل مصارعة ، لاعب كرة ممتازا ، مفكرا كبيرا ، مصلحا اجتماعيا وبطلا شعبيا . تاتيه عشرات الالوف من الجنيهات على كفاءاته التي لا يحصيها عد ... سوسو الرائعة المكافحة تهديه مجوهرات تساوي ملايين الجنيهات ... العمدة والفلاحون يلتفون حوله ويقيمون جمعية تعاونية .

وقد صرح كاتب هذه الرواية منذ مدة قصيرة ان مستوى القصة العربية يفوق مستوى القصة في اوربا وامريكا ؛ ومن الواضح انه يعني القصص التي يكتبها هو .

وهناك قصة الشاب الذي تزوج ابنة الامير الذي كان يقف ابوه بوابا على قصره .. وحكاية الشاب الذي يذهب الى اوربا فتتسابق اجمل الحسناوات لتعانق وتضاجع الوحش الاسمر القادم من الشرق .

هكذا يقنع الشبان ان اهدافهم في الحياة تتلخص في السكنى في فيلا رائعة ، وفي امتلاك المرأة جسدا وروحا وفي ان يصبح للفتاة قوام بريجيت باردو او صوفيا لورين ـ حسب الطلب ـ . والسبيل سهل ميسور لا يحتاج الى اي جهد او عناء ، مجرد حركات بسيطة يؤديها الانسان او كلمات معينة يرددها كان يلمس قدمه اليسرى بيده اليمنى ، وان يكون له جسدا مليئا بالشعر وعضلات وحشية هائلة ، وان تتناول الفتاة الفاكهة صباحا وكوب لبن قبل ان تنام .

وعلى ناحية شارع سليمان باشا وقصر النيل و ٢٦ يوليو يحتشد المئات ممن استعملوا جميع الوصفات التي تحقق لهم السعادة وتبعد عنهم القلق وقد اخذ صراخهم وشتائمهم ومعاكساتهم تطغى على ضجة الشارع .

ان وسائل النشر بما فيها الفن قد خلقت انسانا له اهداف ليست

دار المعارف لبنان ش.م.ل.

بناية العيلي - السور - ص.ب ٢٦٧٦ تلفون ٢٣٥٧٤

تقدم للقارىء العربي للمرة الاولى ترجمة لأهم الامثال الانكليزية الى اللغة العربية. وهذا الكتاب مفيد لدارسي اللغة الانكليزية ولدارسي الفكر الغربي

مختارات من الامثال الانكليزية
١٠٠١
الف مثل ومثل

ان المؤلف قام بنقل الامثال الانكليزية الى العربية بدقة وامانة

جمعها ونقلها الى العربية شريف النشاشيبي

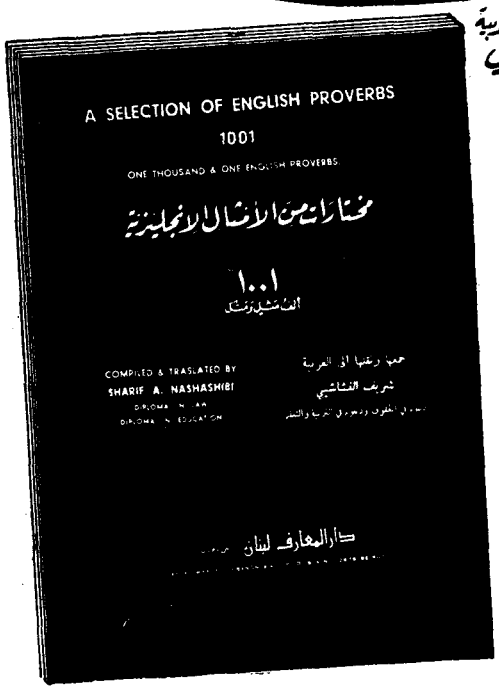

الثمن ٢٠٠ ق.ل أو ما يعادلها

تطلب من جميع المكتبات الشهيرة

مستمدة من واقعه ، وا نماط سلوكية يتمثل فيها الهرب من مشاكله الحقيقية والاستسلام لاحلام اليقظة .

حدثني احد الاصدقاء انه احس مرة انه ربما كان متحاملا على الروايات ذات التوزيع الواسع والافلام المحلية التي تلاقي اقبالا شديدا ، وان ما قراه وشاهده لا يكفي ان يكون اساسا للحكم . فقرر ، لذا ، ان يقرأ عددا من هذه الروايات وان يشاهد بعض هذه الافلام . ولكنه اكتشف انها اشد سوءا مما كان يتصور ، اذ انها ليست شديدة الرداءة من حيث التكنيك والبناء الفني ولكنها كلها تشترك في لا معقوليتها . فالمؤلف او المخرج يختار باستمرار ذلك الحل للموقف الذي يكون اشد اضحاكا واكثر استحالة . وهو يستغرب كيف تروج مثل هذه الاعمال التافهة بينما يقل توزيع اعمال نجيب محفوظ ويوسف ادريس مثلا ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب ان ناخذ في اعتبارنا امرين :

الاول : ينظر الى الفن على انه مجرد ترفيه عن الاعصاب المتعبة ، ومحاولة الانسان الضجر المتأزم القلق نسيان همومه . ان انسانا كهذا يلجأ الى عدة ميكانزمات للخروج من موقف اصبح لا يطاق ، احداها الاستغراق في احلام يقظة يحملها رموز واقعه وصراعه ويضع لها حلولا ساذجة كالحلول التي يضعها الاطفال لمشكلاتهم ، اذ ان حلم اليقظة هو شكل من اشكال النكوص الى مرحلة الطفولة . ولذا كان ما يطلبه من الفن هو الذي يمثل احلام الهارب من واقعه ... انه يسأل نفسه ، ماذا اصنع هذا المساء ؟ هل اصطاد امراة .. ام اشرب زجاجة من البراندي الرديء ... او اقرأ رواية ام اشاهد فلما ؟ ان عناء واقعه يؤكد تمسكه باحلام اليقظة ومثلها ، فلذا يقوم باسقاطها على العلاقات التي تؤلف عالمه الحقيقي ليغنيها بما تفتقر اليه من ثراء وحيوية . ان العالم الحقيقي يصبح دائما مختلطا ببديله في حلم اليقظة .

اما نجيب محفوظ ويوسف ادريس فما الذي يقدمانه؟ وماذا يثيران في داخله ؟ ان ابطالهما هم مجرد متسكعين في حانات او موظفين صغار او طلبة تطحنهم دوامة الحياة في حواري شبرا او زقاق المدق او خان الخليلي ... او هم اخرون يتمردون من خلال اكتشافهم لزيف الحلم ومحاولتهم تخطيه ..؟ اي انهم بكلمة اخرى يشدون قراءهما الى الواقع يجعلونهم اكثر ذكاء واشد قدرة على فهم هذا الواقع . ان مثل هذا الفن يطالب قراءه بالوعي ويدلهم على ان الطريق الى اعلى هي من خلال المعاناة والوعي والصراع . فهل من المعقول ان يتقمص القراء ـ مثلا ـ شخصية حسنين التي تندفع من خلال احلام اليقظة الى الانتحار ؟

وحتى تصبح المقارنة واضحة فعلينا ان نعقد مقارنة بين مصير حسنين الذي حطمته احلام غير مستمدة من واقعه وبين ما قامت به احدى الصحف عند افتتاح فندق الهيلتون في القاهرة .

كانت احدى المدعوات لحفلة الافتتاح الممثلة الامريكية المعروفة جين راسل . وقامت الصحيفة المذكورة بترديد هذه الحكاية المضحكة في صفحاتها الاولى : ان الممثلة الامريكية وقعت في غرام احد خدم الفندق . وكانت عناوينها تقول ان الممثلة الامريكية قالت للجرسون صباح الخير ، ثم قالت له اريد ان آكل ، ثم ابتسمت ، ثم تنهدت ، ثم طلبت منه ان يحضر قهوة لها بعد الغداء ، ثم ابتسمت وتنهدت ... ثم اسرت له شيئا وابتسم ورفض ان يبوح بالسر ... وزادت الصحيفة بأن نشرت صورة لاب وام الجرسون وهم في ثياب رثة لتؤكد ان لا شيء مستحيل ...

لقد خلقت الصحيفة جميع العوامل التي تجعل اكبر عدد ممكن من الناس يتقمصون شخصية هذا الجرسون . فهو ليس مجرد خادم في فندق ولكن له ابا واما كمعظم الاباء والامهات .

ان معنى هذا ان اية ممثلة اخرى هي في متناول الجميع ، فما دامت جين راسل تقع في غرام خادم الفندق فما الذي يمنع صوفيا لورين ، او انجريد برجمان او استر وليامز ان تقع في غرام موظف في الدرجة السادسة او طالب بالجامعة او خادم في فندق اخر ؟ ان الايحاءات التي تثيرها مثل هذه الحكاية ستكون على حساب علاقات العشرات بزوجاتهم وصديقاتهم ، اذ ستبدو اي علاقة غير مرضية ما دامت في شكلها الواقعي في الوقت الذي تصبح فيه استروليامز ممكنة . وبكلمة اخرى اننا نحرم هؤلاء العشرات لان يعبثوا او ينفعلوا في مستوى ظروفهم ولان يحققوا ذاتهم من خلال فهمهم وتخطيهم لهذه الظروف ونجعلهم معلقين باحلام سخيفة وباماني لا يمكن تحقيقها الا من خلال احلام اليقظة او ابدال الواقع باسقاط قيمة اخرى عليه ليست فيه.

الثاني : ان الوصول الى متعة فنية راقية يحتاج الى قدر كبير من الاستقرار المادي والنفسي والاستعداد والثقافة . وتلك امور وان كنا نسعى جاهدين لتحقيقها الا انها تحتاج لجهد متواصل وعناء طويل حتى نحققها كما حدث في جميع البلدان التي ارادت ان تطور نفسها وتحقق الرخاء لافرادها .

واذا اردنا تلخيص ما تقدم نقول ان الجمهور يواجه ظروفا صعبة ومعاناة قاسية لا تساعده على الاستقرار النفسي ومن ثم النضوج العاطفي والذهني . ولقد كان دور الفن والنشر ـ او غالبيته ـ خلق منافذ يتخلص فيها الافراد من قسوة انفعالاتهم ومعاناتهم متمثلة في احلام اليقظة ، وخلق عالم ومشكلات ليس لهما صلة بعالمهم ومشكلاتهم. وان ذلك يتم عند الافراد بالغاء قدرتهم على فهم الواقع والنفاذ الى حقيقته من خلال اسقاط احلام اليقظة عليه او من خلال ابداله القيم الحقيقية بقيم خارجية مفروضة عليه .

ويمكننا ان نضيف الى هذا ان الهرب من المشكلة الحقيقية بوسائل النكوص والهرب راسخ في تقاليدنا ؛ فاستعمال الاحجبة ، وحلقات الزار ، وغير ذلك من الاساليب ما تزال شائعة وتستعمل للتخلص من الانفعالات التي يثيرها شديد التعقيد يعجز الانسان عن حله بسهولة او فهمه بوضوح .

ولكن هل حلت المسألة بهذه الصورة ؟ وهل استبدال القيم الحقيقية بقيم مفروضة عليه من الخارج استطاع ان يخلصه من معاناته ويكسبه الرضى عن النفس ؟

لو اخذنا ظاهرتين تلاقيان اقبالا منقطع النظير من الجمهور بالبحث لتبين لنا ان العكس هو الصحيح : وهما تمثيليات (ساعة لقلبك) واغاني الحب الحزينة . تدور تمثيليات (ساعة لقلبك) في العادة حول شديد البله والعبط ، يذهب مثلا الى الجزار فيقول مثلا انني اريد عشرة ارطال عظم على شرط ان يكون سعر رطل العظم عشرة اضعاف رطل اللحم ، او حول رجل فشار يدعي انه بنى الهرم الاكبر او ابتلع فيلا بحاله واخر يصدقه ، او ان يطلب منه الكمساري قرش صاغ ثمن التذكرة فيعطيه جنيها ويستغرب عندما يرد له الكمساري الباقي . وهنالك دائما شخصية ذكية تهزأ من الرجل العبيط وتؤكد بلاهته .

واما الاغاني فهي مجرد بكاء ونحيب متصلين : « لا ، مش انا اللي ابكي ولا اللي اشكي وان جار علي الزمان » « دموعي الحيرانه وعيوني السهرانة » « يا تصبرني على الحرمان يا ترجعني ليالي زمان » « ببكي ليه على جرحي وصاحب الجرح مش فاكر » « اشكي لك بدمع العين » ... الخ ...

ان تمثيليات (ساعة لقلبك) هي مجرد مداعبة لغرور المستمع ؛ فعندما نؤكد له ان المضحك من الاشياء هو شيء قريب من الجنون المطبق فاننا بذلك نؤكد له انه على ما يرام ، كما اننا نفتح الطريق امامه لتقمص شخصية الانسان الذكي في التمثيلية الذي ينصرف همه الى اقناعنا ان الرجل الابله هو ابله بالفعل .

وهكذا يستغرق المستمع في اطمئنان وثقة بالنفس زائفين اذ من الواضح انه ليس ذلك الابله الذي يشتري رطل العظم بجنيه ويدفع لكمساري قرش صاغ فقط . اننا بذلك نستلب كل قدرة على النقد الذاتي التي تكون دائما جوهر كل فكاهة راقية. كما ان اقبال المستمعين على الاستماع لمثل هذه التمثيليات يدل على شعور بالتفاهة ورغبة حقيقية في الهرب من مواجهة النفس بصراحة .

واذا قارنا هذه التمثيليات بشخصية (بابت) التي ابدع سنكلير لويس في تصويرها لتبين لنا الفارق بين نوعين من الفن الضاحك. فبابت ليس شخصا أبله ولكنه الصورة الشائعة لطبقة كاملة في المجتمع الامريكي ، ولذا كان اظهاره بمظهر الشخصية المضحكة يحتاج من القارىء العادي ان يرتفع بوعيه عن المستوى العادي للادراك والثقافة ، وبالتالي ان يتخطى نفسه وبهذا يساعده على ان يرتفع عن القيم والاكاذيب والتفاهات التي يغرقه بها مجتمعه .

اما الحزن في حد ذاته فلا اعتراض لنا عليه فهو عند دستويسفكي، وشكسبير وستندال وادئر ميللر وكثيرين غيرهم يمثل نفاذ النظرة الى اعماق الحياة . اما هذا الحزن الذي ترددة اغانينا فهو بلا داع ولا سبب ولا يوجد اي سند له من الواقع ، فمن منا يبحث عن فتاة لا هم لها الا ان تعذبه (على قد الشوك اللي في الورد بحب الورد) وكيف يمكننا تصور هذه الفتاة التي تذيب دموعها كل ما يقع تحت يديها من مناديل ؛ وهل يمكن لابن القاهرة الذي يصادف عشرات الالاف من النساء كلما مر في الشارع ان يغرق في الانشغال وسهر الليالي لمجرد انه رأى عيني فتاة ؟ ومن منا يأخذ في اللطم البكاء واقامة الدنيا واقعادها لان فتاة ما لم تسكن بجواره ؟

ان اي قدر ضئيل من المرونة والذكاء عند المستمع السوي سيجعله يشعر ان هذا العويل لا يفترق عن بكاء مهرجي السيرك . اذا ، فما هو سبب رواج هذه الاغاني ، وبماذا نفسر اصرار المستمع على طلبها ومواظبته في الاصغاء لها ؟

ان الحزن هنا هو رثاء الانسان المتعب لذاته ، واحتجاج اليم على المأزق الذي دفع اليه : احلام لا تتحقق ، وواقع خال من كل ثراء لان قدرته على فهمه ومعايشته قد استلبت تماما ، وانه بالتالي تمرد على عملية تسطيحه وتحويله الى انسان ابله .

وبكلمة اخرى ان ايهام الجائع بأنه ممتلىء المعدة سيترك احساسا عميقا بعدم الرضى مهما حاولنا ان نقنعه بانه شبعان . وهو دائما يبحث عن هذه الوسائل الساذجة في التعبير عن حزنه ـ اي سماع اغاني الحب التافهة ـ لان ذلك لا يكلفه اي جهد في الفهم ولا يحتاج الى اي قدر من الذكاء واستكشاف الذات .

* *

كيف يلتقي الاديب بمثل هذا الجمهور ؟

يبدأ الاديب في الكتابة وعلاقاته لا تتجاوز فئة محدودة من الاصدقاء الجادين ، ولذا يسبق ظهور انتاجه في السوق جهدا كبيرا في التحضير والقراءة ، ثم عرض هذا الانتاج على تلك الدائرة المحدودة من الاصدقاء . ويقسو هؤلاء الاصدقاء في الحكم مما يدفعه الى معاودة كتابة هذا العمل او ربما الى التخلي عنه ليقدم عملا اكثر جودة واصالة .

وبعد محاولات عسيرة ينجح في الاتصال ببعض النقاد او المسؤولين في الصحف فينشر عمله ليجد صدى بين فئة محدودة ذات تاثير في الحياة الادبية ، ويعرف عنه انه شاب يبشر بخير وانه جاد . الى هنا، ما زال بعيدا عن الجمهور الحقيقي الكبير الا ان طريق العلاقات قد انفتح امامه وما عليه الا ان يخطو خطوات قصيرة حتى يصبح على رأس سلم الشهرة . لقد اصبح اسمه رائجا ولكن ليس بين الجمهور .

والاديب في هذه المرحلة يذكرني بمطعم في شارع سليمان باشا في القاهرة كنت اتناول فيه طعامي اول ما قدمت . وكان المطعم ، انذاك ، يقدم طعاما ممتازا وبأثمان رخيصة جدا ، كما كانت ادوات الطعام تغسل بالماء المغلي بعد كل وجبة . وكانت الخدمة فيه تتخذ شعار (الزبون دائما على حق) . ولكن الزبائن في السنة الاولى كانوا قلة . ومع مضي الزمن اصبح المطعم يفص بالزبائن في وقت من اوقات النهار وتغير كل شيء فيه . ساءت الخدمة ، وارتفعت الاثمان ، ولكن المطعم ما يزال يفص بالزبائن .

اننا نستطيع ان نقول الشيء نفسه عن الاديب اذ هو في المرحلة الاولى يكون ـ كهذا المطعم في اول عهده ـ مجرد قدرة ذاتية مجتهدة ، ولكنها ما زالت بعيدة عن اقبال الجمهور لانها لم تكتسب بعد صفات السلعة الرائجة التي يشتريها الجمهور باطمئنان .

وبكلمة اخرى عليه ان يتغير حتى يروج ، أي ان ينتقل من مرحلة الانسان الذي يتصرف بوحي من قيمه الى مرحلة الانسان السلعة الذي يسعى الى الرواج .

عندما يحاول شخص ما ان ينشيء مصنعا فعليه ان يحقق امرين ان اراد لمصنعه ان يستمر . الاول ان يكون واثقا بأن هذه السلعه يمكن ان تباع ، وحاجة الجمهور لهذه السلعه امر ثانوي اذ ان البائع الماهر يستطيع بوسائل لا حصر لها خلق الاف الاحتياجات الوهمية عند الجمهور . والثاني ان يكون واثقا من قدرته على خلق هذه الاحتياجات عند الجمهور .

ان الاديب يختلف ، هنا ، عن السلعه في انه لا يبلى بسرعة ولا يتكدس في المخازن اذا لم يَرُج ؛ وهكذا باستطاعته ان يبدأ من جديد ويعيد التجربة مع بعض التعديل .

لنفترض ان هذا الاديب اشتغل في مجلة (ب) ، واخذ ينشر فيها مقالات عن (الموت في قصص هيمنجوي) ، او (الطبقة الوسطى من خلال مؤلفات فلوبير) وما شاكل هذه الموضوعات . وسيجد ان رئيس التحرير يلومه فلم تصل اي رسالة اعجاب بما يكتب هذا الاديب ولا حتى مكالمة تلفونية من مراهقة . وبطريق المصادفه وبما يشبه المزاح يقدم هذا الاديب مقالا حول هوايات جين مانسفيلد ، او تحت عنوان (الطريق الى الشهرة !) وفجأة تصل عدة رسائل عن يكون هذا النجم

ـ التتمة على الصفحة ٥٥ ـ

وضعية الاديب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٩ ـ

الجديد ، وتصله مكالمات تليفونية من نساء من مختلف الاعمار معلنة ان هذا الكاتب انقذ حياتهن ، وانه دلهن على الطريق السويّ بعد ان عانين كثيرا من الضياع . ويساله عشرات المراهقين عن هواياته ، واخرون يطلبون منه المشورة .

وهكذا يكتشف سبيلا ميسورا للشهرة والصعود . ومع قليل من الجهد الاجتماعي تظهر قصصه في السينما بعد ان يدلي اليه المنتج والمخرج ببعض النصائح وبعد ان تحوّر الممثلات في الادوار ، حتى تبدو كما تود ان يراها جمهورها .

ان الوضع الجديد قادر ان ينزعه بسهولة من جديته واخلاصه وتتحول جميع القيم التي كان يتبناها في السابق الى مجرد تهريج . سيتحدث في السياسة وعينه على جمهوره فيقول انه لا يكفي ان نقول ان الانتخابات الامريكية تخضع لظروف اقتصادية وسياسية معينة ولكن علينا ان ناخذ في اعتبارنا فتاة ساحرة تتبع نكسون كظله ، او يكتب عن دور زوجتي ايزنهاور وخروشوف في محادثات كامب دافيد. ويصبح الحديث عن الفن معناه التحدث عن مباذل الفنانين وعلاقاتهم الغرامية وهواياتهم ومقدار جاذبيتهم الشخصية . ويقول انه قابل الممثلة توتو فيصف رقتها وحساسية تقاطيع وجهها وملابسها الثمينة والبسيطة في الوقت ذاته ، واضرابها عن وسائل التجميل الرخيصة ، ثم يصل الى نتيجة ان فن معاملة الناس هو اعظم من كل الفنون مجتمعه .

* *

ربما بدا ان الوضع الذي اوجزناه يكوّن حلقة مفرغة : الاديب يتكيف باحلام اليقظة عند قرائه ، والقراء يلتهمون ما يقدم اليهم فتتاكد بذلك هذه الانماط السلوكية التي شرحناها والتي تعود فتفرض نفسها على الادباء . وهذا كله يعني الفاء دور جمهور القراء الجاد في ان ينعكس على انتاج الكاتب ، وفي دور الكاتب الجاد في التاثير في جمهوره .

وسبب ذلك ان الاثنين لا يستطيعان الرواج ، فلا الجمهور القارىء الجاد يكوّن عددا كبيرا ولا الكاتب الجاد بمستطيع ان يمضي في قول ما يريد ويظل مجهولا وجائعا .

وقد يعترض البعض قائلين ان نجيب محفوظ استطاع ان يمضي خمسة عشر عاما او ما يقارب ذلك وهو ينتج دون ان يتاثر بلا مبالاة جمهوره وحتى بانصراف العناصر الواعية عنه ، ولكنه بالرغم من ذلك استطاع ان يؤكد نفسه ويلاقي بعض الرواج .

ولنا ملاحظتان على هذا الاعتراض :

الاولى ، ان نجيب محفوظ اختار ان يبتعد بطوعه عن هذا الجمهور وعن ردود فعله ، فعمل موظفا ومن خلال الوظيفة استطاع ان يسد حاجته المادية ، وكان يكتب في اوقات فراغه ولم يكن ذلك ياتيه باي دخل معقول .

ولقد كان لهذا كله اثره على انتاجه ، ففي الوقت الذي نلمس فيه عمق وحيوية وصف التجربة الشخصية متمثلة في الانماط التي عايشها في طفولته وصباه ، وفي وصف عزلته الخاصة ، نرى انه لم ينجح في تصوير الشخصيات التي نشات في بيئات الحياة الجديدة ، اذ تبدو مصورة تصويرا عقليا وبلا ابعاد . فهل نستطيع ان نقول ان وصفه لشخصيات احمد عبد الجواد وامينه وياسين وكمال يماثل شخصيات الشبان في ثلاثينه ؟

الثانية : هل اصبح نجيب محفوظ مقروءا بالفعل ؟ وهل كان اقبال القراء عليه بسبب تجاوب حقيقي وبين الاغلبية القارئة ؟

بغض النظر عن ارقام التوزيع فان الاقبال على نجيب محفوظ يماثل الاقبال على (الموده) الجديدة ، او كما يقبل اثرياء العرب على شراء لوحة لبيكاسو لا يستطيعون تذوقها . وسبب هذا ان النقاد عندما التفتوا ـ بشيء من الشعور بالذنب ـ الى نجيب محفوظ واخذوا في تحليل كتبه والتاكيد على اعتباره كاتبا ممتازا ، وتلا ذلك صغار الصحفيين الذين اخذوا يحدثوننا عن اراء نجيب محفوظ في المراة وفي ممثلات السينما ، وعن كيفية قضاء ساعات فراغه ، ثم اخذت بعد ذلك رواياته تنتقل للشاشة احس الجمهور ان شيئا ما ينقصهم ويعيب في حقهم ان لم يقراوا نجيب محفوظ . فمن المعروف ان افراد هذا الجمهور لهم راي عال جدا في نفوسهم .

اذكر منذ اربع سنين ، عندما كنت طالبا بالجامعة الامريكية اني قمت باستفتاء بين الطلبة الذين كانوا على اهبة التخرج حول ارائهم في الموسيقى والادب وهواياتهم المحببة . وكانت الاجابات مدهشة حقا كانها مدسوسة لمجرد التشنيع .

قالت طالبة انها تحب فوكنر ـ وقد كتبت بحثا عنه ونالت عليه تقديرا مرتفعا ـ و ت. س. اليوت واحسان عبد القدوس . هواياتها جمع الطوابع البريدية وهي تملك مجموعة ممتازة بالفعل . في الموسيقى تحب بيتهوفن (موت) ، وتحب صوت عبد الحليم حافظ وفريد الاطرش ـ لا تدري سببا لهذا الهجوم عليه ؟ ـ .

من الواضح ان هذه الطالبة قد جمعت بين ما تحب فعلا وبين ما تعتقد انه جدير بالانسان المثقف ان يحب ، ولهذا كانت اجابتها عن رايها في نجيب محفوظ ـ ولم يكن انذاك قد اصبح مودة ـ انه Vulgar سوفي ، وانها امتنعت عن قراءة اي شيء له بعد ان قرات جزءا من روايته « زقاق المدق » . ولما قلت لها ان فوكنر هو الاخر يكتب عن شخصيات سوقية اجابت بحماس : « لا ، لا ، دا فوكنر حاجة ثانية » .

والان نعود الى المسالة الرئيسية وهي : من اين نبدا ؟ هل نمسك برقاب الادباء والفنانين ونقسرهم على تحسين مستوى انتاجهم ؟ ام نتجه الى الجمهور ونبصره بحقيقة ما ينشر ـ على زعم اننا مستطيعون ذلك بيسر ؟ من الواضح هنا اننا نغفل عاملا اخر له اهمية قصوى وهو الدولة التي ازداد اثرها ازديادا ملحوظا في التوجيه الاقتصادي والفني .

اذا ، نحن هنا امام موقف تكونه ثلاثة عناصر : الفنانون والجمهور والدولة . فلو اخذنا العامل الاول ـ الفنانين ـ وتساءلنا هل يتوفر لدينا الانتاج الجيد الجاد الذي يستطيع ان ياخذ مكان الانتاج الشائع ؟ استطعنا ان نقول بكل بساطة ان لنا من التراث العالمي ما يسد جزءا من حاجتنا اذا احسن تقديمه للقارىء . والى جانب هذا فان عشرات الكتاب الذين يغرقون الان في حمى التفاهة كانوا يشكلون امكانية كتاب وفنانين كبار لو توفرت لهم الظروف .

لهذا فالمشكلة ليست انه لا يوجد هنالك ما ياخذ مكان الانتاج الشائع الذي يغرق السوق ، ولكن المشكلة ان الانتاج الجيد المتوفر يجد اقبالا محدودا فقط يجعل من محاولة تقديمه مغامرة غير مامونة العواقب.

الا ان هذا كله لا يبرر او يلغي مسؤولية الكاتب ازاء قرائه . فما زال الانسان الذي يستطيع ان يتجاوز ضرورات اللحظة الانية وتعقيداتها ممكنا وواجب الوجود . لا يمكن للفنان الحقيقي ـ مهما كانت التبريرات ـ ان يتخلى عن ميزاته كانسان وان يرضى بان يتحول الى سلعة رائجة في السوق . من غير المعقول ان يتلخص وجود الفنان في ان يدر اكبر قدر من النقود للمنتج والناشر ولنفسه مقابل تخليه عن صفة كونه انسانا حرا مسؤولا .

ان على الفنان الذي يبرر تفاهته بالظروف المحيطة به الا ينسى اننا نستطيع ان نستعمل المنطق نفسه مع المجرم فنتيح له السرقة والقتل والاغتصاب والعيش في بحبوحة ونقول انه حكم الظروف . ولكن كلا المجرم والفنان يدركان ما في هذا القول من مغالطة ، اذ ان كليهما يملك قدرا من الحرية والارادة يجعل اي فعل حتميا غير قسري.

ولكن أيكفي ان نقول ذلك للفنان وندعه في المعاناة والارهـــاق ؟ هنا تبرز اهمية الدور الذي يمكن ان تلعبه الدولة . ان واجبها يتلخص في حماية حرية الفنان من الحاح السوق ، وبالتالي من عملية تحويـله الى سلعه . وتبرير ذلك ان الفن لا يمكن ان يكون سلعة بالفعل ، لان السلعة تستهلك في زمن محدود بينما يظل الفن يغني ويثري الانســان ويسد احتياجاته الروحية لمئات وربما لالاف السنين . اي ان الدولة تستطيع بما لها من قدرة مادية ان تمنع عقلية التاجر الصغير من التحكم فـي الفـن .

فكيف يمكن ان يتم ذلك ؟

من الواضح ان حلا نهائيا حاسما ، شيئا يشبه القانون الـــذي ينظم علاقات واضحة محدودة بين الناس امر غير عملي وغير ممكن ، ولكن هذا لا يمنع من ابداء بعض الاقتراحات .

اذا القينا نظرة على قانون تفرغ الفنانين الذي اصـــدرته وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة منذ مدة وجيزة نجد انه يشـبه المنح التـي تخصصها الجامعات في الدول الغربية لبعض الدارسـين حتى يتفرغوا لانتاج عمل معين يحتاج الى مال وتفرغ . لان الباحث خلال هذه المدة لا يستطيع ان يزاول عمله العادي وارضاء طلب السوق خلال ذلك . ولان الجامعات الغربية تشعر ـ عندما خصصت امثـال هـذه المنح ـ انه من الصعب انتاج اثر ذي قيمة علمية في ظروف السوق الغـربية .

ولكن هل ينطبق الامر على الفنان ؟ ان نمنحه تفرغا لمدة سنة فان انتج خلال هذه السنة اعمالا ترضى عنها الوزارة فعندهـا يصبح من الممكن تجديد مدة التفرغ سنة اخرى ؟

اننا هنا نضع الفنان بين نارين : بين احساسه بان عليه ان ينتج قسرا شيئا ما خلال هذه السنة ، والا فسيعود الى حالته الاولى مـن المعاناة والإنهاك التي لا تسمح له بالانتاج ، او حتى الى وضع ربما كان اكثر سوءا بسبب كثير من الفرص التي تتيحها له الحياة العملية . وبين رضى المسؤولين الذين يمنحون التفرغ ، ومهزلة لجنة الشعر معروفـة في هذا المجال اذ تحول اجود ما ينشر من الشعر الى لجنة النثر على اعتباره ليس شعرا .

ولعله من الامور ذات الدلالة ان معظم الادباء الذين هم بحاجة الى تفرغ لم يحاولوا الاستفادة من هذا القانون . فنجيب محفوظ ويوسف ادريس وعبد الرحمن الشرقاوي وادوار الخراط لم يقدموا اي طلب للتفرغ . (من الطريف حقا ان صلاح عبد الصبور فسر استغراقه بالعمل الصحفي بالحاجة الى مورد رزق ، وان احسان عبد القدوس كثـــير الشكوى من ارهاق العمل الذي يمنعه من الانتاج كما يود ومع هذا لـم يقدما اي طلب للتفرغ) .

بالطبع ليس في نيتي ان اضع مشروع قانون للتفرغ ، ولكن ملاحظة ان هذا القانون لم يحل المشكلة الرئيسية للفنانين وهي ايجاد قـدر من الاطمئنان النفسي يجعلهم قادرين على التفرغ دون الاحساس بالخوف من مصيرهم معلقا خلال سنة من الزمان ، هي امر جدير بالانتبـــاه والعلاج .

وتظل مشكلة جمهور القراء ، وهو كما قدمنا جمهور مرهق ماديـا ونفسيا ولذا يقبل عليه الانسان المتوتر .

ان حل المشكلة المادية وحدها لا يكفي ، لان الانسان الذي يفتقـد الاطمئنان النفسي اذا منح المال تحول الى مبذر او ربما الى انســان يكنز المال ولا يحاول الاستفادة منه . ـ

ان ما يحتاجه هذا الجمهور ، بجانب حل المشكلة المادية ، ان يمنحه عالمه الاطمئنان والقدرة على الانتماء واقامة علاقة مع الاخرين تتميـز بالعفوية والحب

ان هذا يستلزم تنظيم المجتمع على اساس يتيح للجميع ان يتلاقوا دون خوف ، وان لا يلاحقوا بمئات القيود التي خلفتها العهود السابقة والتي تدفعهم الى الانطواء والقلق .

القاهرة — غالب هلسا

الى مـدراء المعاهـد والمدارس والمؤسسات

مكتبـة لبنـان

بيروت ـ ساحة رياض الصلح

تعلن عن استعدادها لتزويدهم بجميـع ما يحتاجون اليـه من كتب انكليزية وفرنسية وعربية مدرسية وادبية وعلمية ، وكل المعـلومات الضرورية واللوائح والفهارس .

ويسر مكتبة لبنان ان تستقبلهم لدى زيـارتـهم للعاصمة اللبنانيـة لتقدم لهم جميع الخدمات والتسهيلات